شعب الشيطان المختار

(4)

عبد الستار قاسم

أبين في هذه الحلقة مسألة توظيف الصهاينة الغزاة لربهم الخاص في منح الأراضي والأطيان لهم، وتخصيصهم دون الشعوب الأخرى، وكأن الرب يعمل بتجارة الأراضي أو توزيع الحصص ومحاباة قوم على أقوام آخرين.

بداية أشير إلى أن الصهاينة يعتبرون سيدنا إبراهيم أبا لهم وحدهم ووريثه فقط إسحق ابن سارة، وهم يتعاملون مع هذا الأمر في التوراة كحقيقة مطلقة ويبنون عليها تنظيرهم الديني.

يقول الرب لإبراهيم: "ارفع عينيك وانظر من الموضع الذي أنت فيه شمالا وجنوبا وشرقا وغربا، لأن جميع الأرض التي ترى لك أعطيها ولنسلك إلى الأبد، وأجعل نسلك كتراب الأرض، حتى إذا استطاع أحد أن يعد تراب الأرض فنسلك أيضا يعد. قم امش في الأرض طولها وعرضها أني لك أعطيها. (تكوين، 13: 14-17) ما هي هذه الأرض؟ الجواب "لنسلك أعطي هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات." (تكوين، 15: 19) وتشير التوراة إلى هذا الوعد فيما يخص يعقوب فتقول: "فخرج يعقوب من بئر سبع وذهب نحو حاران، وصادف مكانا وبات هناك لأن الشمس كانت قد غابت، وأخذ من حجارة المكان ووضعه تحت رأسه فاضطجع في ذلك المكان، ورأى حلما وإذا سلم منصوبة على الأرض ورأسها يمس السماء، وهو ذا ملائكة الرب صاعدة ونازلة عليها، وهو ذا الرب واقف عليها فقال أنا الرب إله إبراهيم أبيك وإله إسحق. الأرض التي أنت مضطجع عليها أعطيها لك ولنسلك، ويكون نسلك كتراب الأرض وتمتد غربا وشرقا وشمالا وجنوبا ويتبارك فيك وفي نسلك جميع قبائل الأرض، وها أنا معك وأحفظك حيثما تذهب وأردك إلى هذه الأرض، لأني لا أتركك حتى أفعل ما كلمتك به." (تكوين، 28" 10-15) وقد أكدت التوراة هذا الحلم عندما قال الرب ليعقوب: "والأرض التي أعطيت إبراهيم وإسحق لك أعطيها، ولنسلك من بعدك أعطي الأرض." (تكوين 25: 12)

تذكر الرب عهده مع بني صهيون بعدما خرجوا إلى مصر وخضعوا لفرعون. تقول التوراة: "وحدث في تلك الأيام الكثيرة أن ملك مصر مات وتنهد بنو إسرائيل من العبودية وصرخوا، فصعد صراخهم إلى الله من أجل العبودية، فسمع الله أنينهم فتذكر الله ميثاقه مع إبراهيم وإسحق ويعقوب، ونظر الله إلى بني إسرائيل وعلم الله." (خروج، 2: 23-25) ولهذا قرر الرب أن يخرج بني صهيون من أرض مصر وأن يبعثهم إلى الأرض الموعودة وبقدرته هو.

يقول الرب: "أرسل هيبتي أمامك وأزعج جميع الشعوب الذين تأتي عليهم وأعطيك جميع أعدائك مدبرين، وأرسل أمامك الزنابير فتطرد الحويين والكنعانيين والحثيين من أمامك، لا أطردهم من أمامك في سنة واحدة لئلا تصير الأرض خربة فتكثر عليك وحوش البرية. قليلا قليلا أطردهم من أمامك إلى أن تثمر وتملك الأرض. واجعل تخومك من بحر سوف إلى بحر فلسطين ومن البرية إلى النهر، فإني أدفع إلى أيديكم سكان الأرض فتطردهم من أمامك، لا تقطع معهم ولا مع آلهتهم عهدا، لا يسكنوا في أرضك لئلا يجعلوك تخطئ إلي." (خروج، 23:27-33) وتضيف التوراة: "وقال الرب لموسى اصعد من هنا أنت والشعب الذي أصعدته من أرض مصر إلى الأرض التي حلفت لإبراهيم وإسحق ويعقوب قائلا لنسلك أعطيها، وأنا أرسل أمامك ملاكا وأطرد الكنعانيين والأموريين والحثيين والفرزيين والحويين واليبوسيين" (خروج، 33:1-2)

حدد الرب لموسى الأرض التي هم ذاهبون إليها بعد خروجهم من مصر وذلك كالتالي: "وكلم الرب موسى قائلا أوصي بني إسرائيل وقل لهم إنكم داخلون إلى أرض كنعان، هذه الأرض التي تقع لكم نصيبا، أرض كنعان بتخومها تكون لكم ناحية الجنوب من برية صين على جانب

أدوم، ويكون لكم تخم الجنوب من طرف بحر الملح إلى الشرق ويدور لكم التخم من جنوب عقبة عقر ويعبر إلى صين وتكون مخارجه من جنوب قادش برنيع ويخرج إلى حصر ادار ويعبر على عصمون، ثم يدور التخم من عصمون إلى وادي مصر وتكون مخارجه عند البحر. وأما تخم الغرب فيكون البحر الكبير لكم تخما. هذا يكون لكم تخم الغرب. وهذا يكون لكم تخم الشمال من البحر الكبير ترسمون لكم إلى جبل هور، ومن جبل هور ترسمون إلى مدخل حماة وتكون مخارج التخم إلى صدد. ثم يخرج التخم إلى زفرون وتكون مخارجه عند حصر عينان. هذا يكون لكم تخم الشمال. وترسمون تخما لكم إلى الشرق من حصر عينان إلى شفام، وينحدر التخم إلى ربلة شرقي عين. ثم ينحدر التخم ويمس جانب بحر كنارة إلى الشرق، ثم ينحدر التخم إلى الأردن وتكون مخارجه عند بحر الملح. هذه تكون لكم الأرض بتخومها حولها." (عدد، 34: 1-12) هذه الأرض مخصصة فقط لتسعة أسباط ونصف وهي تشمل المناطق التالية: تمتد من جنوب طرابلس بقليل إلى العريش ووادي سيناء جنوبا. يخرج التخم من جنوب طرابلس إلى الشرق ليضم أغلب أرض لبنان حاليا والجنوب الشرقي من سوريا الصغرى حاليا، ومنطقة إربد شمال شرقي الأردن، ثم ينحدر جنوبا ليأخذ بحر الملح، ولا يترك من فلسطين الانتدابية القائمة حاليا إلا الطرف الجنوبي من النقب.

ماذا عن السبطين والنصف المتبقين؟ هؤلاء أخذوا "نصيبهم في عبر أردن أريحا شرقا نحو الشروق." (عدد، 34: 15) هذه الأرض تكون غور الأردن الشرقي وجبال السلط حتى تخوم ربة عمون، والتي هي عمان حاليا. ثم يقسم الرب الأرض بين أسباط بني إسرائيل دون مراعاة بتاتا للشعوب الموجودة على الأرض، ويطلب من شعبه ألا ينجسوا الأرض التي هو "ساكن في وسطها، إني أنا الرب ساكن في وسط بني إسرائيل." (عدد، 35: 34) ويوصي الرب: "متى قرض الرب إلهك من أمامك الأمم الذين أنت ذاهب إليهم لترثهم وورثتهم وسكنت أرضهم فاحترز من أن تصاد وراءهم بعدما بادوا من أمامك ومن أن تسأل عن آلهتهم" (تثنية، 13: 29-30)

يوسع الرب دائرة الأرض التي يعطيها لبني صهيون إذ يقول ليشوع "فالآن قم اعبر هذا الأردن أنت وكل هذا الشعب إلى الأرض التي أنا معطيها لهم أي لبني إسرائيل. كل موضع تدوسه بطون أقدامكم لكم أعطيته كما كلمت موسى، من البرية ولبنان هذا إلى النهر الكبير نهر الفرات، جميع أرض الحثيين وإلى البحر الكبير نحو مغرب الشمس يكون تخمكم. لا يقف إنسان في وجهك كل أيام حياتك." (يشوع، 1: 1-5)

تبرز في كتاب الصهاينة المقدس مسألة مغارة المكفيلة التي بالخليل، والتي دفن فيها إبراهيم زوجته سارة. تقول التوراة إن سارة قد ماتت ولم يجد إبراهيم مكانا يدفن ميته فيها، فتوجه نحو عفرون الحثي الذي كان يملك حقلا على طرفه مغارة ليبيعه الغار. لم يتردد عفرون في وهب الغار لإبراهيم قائلا له: "لا يا سيدي اسمعني. الحقل وهبتك إياه، والمغارة التي فيه لك وهبتها. لدى عين بني شعبي وهبتك إياها ادفن ميتك. فسجدك إبراهيم أمام شعب الأرض وكلم عفرون في مسامع شعب الأرض قائلا بل إن كنت أنت إياه فليتك تسمعني. أعطيك ثمن الحقل، خذ مني فأدفن ميتي هناك. فأجاب عفرون إبراهيم قائلا له: يا سيدي اسمعني، أرض بأربع مائة شاقل فضة ما هي بيني وبينك. فادفن ميتك. فسمع إبراهيم لعفرون ووزن إبراهيم لعفرون الفضة التي ذكرها في مسامع بني حث. أربع مائة شاقل فضة جائزة عند التجار." (تكوين، 33: 8-16)

هناك ملاحظتان وهما أن إبراهيم لم يكن يملك مكان قبر في فلسطين على الرغم من أن الرب قد ملكه من البحر الكبير إلى نهر الفرات، وأن منطقة الحرم الإبراهيمي القائم حاليا والذي يقوم جزئيا على غار المكفيلة قد تم شراؤها قبل 4000 عام. إذا ترجمنا هذا الأمر إلى مفاوضات فذلك يعني أن الصهاينة لن يفاوضوا على منطقة الحرم الإبراهيمي لأنها أرض قد

تم شراؤها من قديم الزمان، وهذا ما يفسر الهجمة الاستيطانية الكبيرة على منطقة البلدة القديمة في الخليل ومنطقة شرق الحرم. مسألة الخليل أكثر تعقيدا من القدس من الناحية التفاوضية.

هناك قصص كثيرة في التوراة تشكل مبررات للصهاينة لامتلاك الأرض، وعليها يستندون في كثير من جدلياتهم حول ملكية الأرض الآن. فمثلا تقول التوراة: "فاستيقظ يعقوب من نومه وقال حقا إن الرب في هذا المكان وأنا لم أعلم. وخاف وقال ما أرهب هذا المكان. ما هذا إلا بيت الله وهذا باب السماء. وبكر يعقوب في الصباح وأخذ الحجر الذي تحت رأسه وأقامه عمودا وصب زيتا على رأسه. ودعا اسم ذلك المكان بيت إيل. ولكن اسم المدينة أولا كان لوز." (تكوين، 28: 16–19) هذا المكان تقوم فيه الآن مستوطنة بيت إيل بالقرب من مدينة البيرة. أما قبر راحيل الذي يشكل مشكلة كبيرة في مدينة بيت لحم اليوم فهو ناجم عن موت راحيل، حسب التوراة، في المكان. "فماتت راحيل ودفنت في طريق أفراتة التي هي في بيت لحم. فنصب يعقوب عمودا على قبرها وهو عمود قبر رحيل إلى اليوم" (تكوين، 35: 16–19) كذلك الأمر بالنسبة لمستوطنة راحوفوت، وبير شيبع (بئر السبع) وشيلو وأدوميم وغيرها.

واضح في التوراة أن كاتبها كان ضليعا في الجغرافيا، وكان قادرا على حبك القصص المتناسبة مع التمنيات العبرانية والرغبات في امتلاك الأرض وقتل الناس وطردهم. المتابع لحلقات هذه السلسلة من المقالات يرى عملية التناغم بين الرغبة في التملك والتحريض على القتل الجماعي والطرد، وتغليف كل شيء بغلاف ديني مقدس وبنصوص منسوبة مباشرة إلى الرب الذي يعيش بين شعب إسرائيل.

في كل هذا يتضح الاستعلاء والشعور بالتفوق على الآخرين، ويتضح فكر الانعزال واحتقار الآخرين والتخلص منهم. إنهم لا يستطيعون العيش مع أحد، ويحذرهم ربهم باستمرار من العيش مع الآخرين الذين يشكلون نجسا ودنسا.

إذا كان لعربي أن يفكر في مسألة التعايش مع الصهاينة الغزاة فإن عليه أن يقرا كتبهم المقدسة أولا، وأن يقرأ فقه حكماء اليهود الصهاينة، وكتب التفسير الديني. وإذا كان لا يريد القيام بذلك فالأفضل له وللأمة أن يبقى في بيته مجنبا الأمة الويلات.